بمناسبة الخميس العظيم

سر الشكر

(الإفخارستيا)

في الكنيسة الأرثوذكسية

المتروبوليت

نقولا أنطونيو

مطران طنطا وتوابعها للروم الأرثوذكس

والوكيل البطريركي للطائفة العربية بمصر

الصوم الأربعيني المقدس ٢٠١٠

طبعة ثانية منقحة ومزادة

www.coptology.org

جدول المحتويات

ســـر الشكر (الإفخارســـتيا) في الكنيسة الأرثوذكسية..... ٨

ســـر الشـــكر (الإفخارســـتيا) في التراث الآبائي الأرثوذكسي ٢٤

القديس يوستينوس (+ ١٦٧):..... ٢٤

ترتليانوس (+ ٢٢٠):..... ٢٤

القديس أفرام السرياني (+ ٣٧٣): ٢٥

القديس كيرلس الأورشليمي (+ ٣٨٧): ٢٥

القديس أمبروسيوس أسقف ميلان (+ ٣٩٧):..... ٢٥

القديس يوحنا الذهبي الفم (+ ٤٠٧):..... ٢٧

القديس يوحنا الدمشقي (+ ٧٦٠): ٢٧

القديس سمعان اللاهوتي الحديث (+ ١٠٣٣): ٢٨

القديس نقولا كباسيلاس (+ ١٣٧١): ٢٨

الأب ليف جيلليه (+ ١٩٨٠) ٢٩

مـــدخـــل

في البداية من المهم تعريف التعبيرين "سر" و"رمز"، بحسب مفهوم كنيســـتنا الأرثوذكسية.

"السر": في خبرة الكنيسة والتقليد الأرثوذكسيين هو، أولاً وقبل أي أمر آخر، يعتبر كشفاً للطبيعة الحقيقية للخليقة التي تبقى، على سقوطها وعلى وجودها في "هذا العالم"، عالم الله المتطلع إلى الخلاص والفداء وإلى التجلي سماءً جديدة وأرضاً جديدة. أي بتعبير آخر أن "السر" – بحسب الخبرة الأرثوذكسية – يكشف الطابع الأســـراري للخليقة؛ لأن العالم إنما خُلق وأُعطي للإنسان لتتحول حياة الخليقـــة إلى مشـــاركة في الحياة الإلهية.

وإذا كان يمكن الماء أن يتحول إلى "غسيل للولادة الجديدة" في المعمودية، وإذا كان بعض من أكلنا على الأرض كالخبز والعنب يمكن أن يتحول إلى جسد المســـيح ودمه، وإذا كانت مسحة الروح القدس تُمنح بالزيت، أي باختصار إذا كان بمقدورنا التعاطي وكل الأشياء في العالم وتقبُّلها كهبة من الله وكمشاركة في الحياة الجديـــدة، فذلك يعود إلى أن القصد من خلق الكون، إنما هو إتمام القصد الإلهي "كي يكون الله الكل في الكل" (١كو١٥:٢٨).

هذه المقاربة الأسرارية للعالم هي بالضبط مصدر الكونية المنيرة التي تدخل في أدق تفاصيل حياة الكنيسة والتي تطبع التقليد الليتورجي والروحاني الأرثوذكسي. من هنا نفقه الخطيئة سقوطاً للإنسان، ومن خلاله سقوطاً للخليقـــة مـــن عُلـــى هـــذه

الأسرارية. فما كان من المسيح إلاَّ أن أنجز خلاص العالم بأن أعاد إلى هذا العالم تحديداً وإلى الحياة بأكملها، أسراريتها هذه.

إنه سرٌ كوني وأخروي (إسخاتولوجي) في الوقت نفسه، إنه إعـــلان ظفـــر المسيح. وعليه، فهذا يعني أن "السر" في الخبرة والتقليد الأرثوذكسيين هـــو في المقـــام الأول، الكنيسة. وبما أن الكنيسة هي "سر" فهي تُبنى وتُعلن وتُكمل بالأسرار وعلـــى وجه الخصوص وبالتأكيد بـــ "سر الأسرار"، أي سر الشكر (الإفخارستيا) المقـــدس. والكنيسة ليست – استناداً إلى التقليد الآبائي القديم – موضوعاً يقبل التحديد، إنما هي خبرة حياة جديدة. إنها خبرة تكون فيها البنية المؤسسية والتراتبية والحقوقية (الكنسية) والليتورجية ... بنية أسرارية، رمزية بجوهرها.

"الرمز": المفهوم الأصلي لـــ "الرمز" في الكنيسة والتقليد الأرثوذكسي، هـــو يشرح حقيقة ما يحدث، وليس أنه يرمز مجازاً إلى ما يحدث. فمعنى "الرمز" في خـــبرة الكنيسة والتقليد الأرثوذكسي لم يكن رديفاً لـــ "التصوير". إذ يمكن ألاَّ يكون هناك أي شبه، من أي نوع كان، بين الرمز وما يرمز إليه. إن وظيفة "الرمز" الأساســـية لا تكمن في التصوير (ما يفترض ضمناً غياب ما يُصوَّر)، بل، وعلى نقيض ذلك تماماً، في أنها ترمي أولاً وأخيراً إلى كشف ما يُرمز إليه وإشراك المؤمنين في هذا الكشف. مـــن هنا، يمكن للبعض أن يقول إن ما بين الرمز والحقيقة التي يرمز إليها هو تواصل أكثـــر منه تشابه. وهذه المقاربة للرمز تجعلنا ندرك عمق الهوة السحيق بين القديم والحديث.

استناداً إلى هذا الأخير (الحديث)، يمكن للرمز أن يكون صـــورةً أو مـــدلولاً لشيء يختلف كلياً، لا نجده بالفعل في الرمز (كذا الحال بالنسبة للماء التي يشار إليهـــا في الكيمياء بالرمز H^2O). في حين أن الرمز بحسب المفهوم القديم، هو إعلان، بـــل حضور لشيء آخر، يُبرز الطبيعة الأخرى لما يُرمز إليه على أنه تحديداً أخرى، أي على أنها حقيقة لا يمكن في الظروف الراهنة أن تكشف نفسها إلاَّ من خلال الرمز. ما يعني

أن لا يمكن الفصل بين الرمز الأصيل والإيمان. فالإيمان هو بالضبط "الدليل على حقيقة وجود الأشياء غير المنظورة"، وهو سعيٌ إلى معرفة وجود هذه الحقيقة الأخرى، وهو أبعد ما يكون عن الاختبار العلمي الذي يحتاج إلى إثبات. لكن في الإمكان ولوجه وتناوله، إنه حقيقة لا يرقى إليها الشك. فإذا كان "الرمز" يفترض وجود الإيمان، فالإيمان بدوره يتطلب رمزاً. **والإيمان** خلافاً للاعتقاد البسيط أو المذهب الفلسفي، **هو** تحديداً **شركة وعطش إلى الشركة، إنه تجسد وعطش إلى التجسد وإلى إعلان وحضور وإلى فعل حقيقة على أخرى**. هذا هو "الرمز" بالضبط.

إن "الرمز"، على نقيض الاستعارة والعلامة. و"السر" يجمع حقيقتين: الحقيقة التي تستند إلى اختبار، أو الحقيقة "المنظورة"، والحقيقة الروحانية، أو "غير المنظورة". وهذا الجمع لا يتم بطريقة منطقية (هذا معناه كذا)، ولا بطريقة التماثل (هذا يماثل لذلك)، ولا وفق علاقة سببية (هذا سببه كذا)، بل استعلانياً. كل حقيقة تكشف حقيقة أخرى لكن (وهذا هو المهم) فقط بقدر ما يكون الرمز نفسه تعبيراً عن الحقيقة الروحانية وتجسيداً لها.

بتعبيرٍ آخر، في "الرمز" الكل يعلن الحقيقة الروحية، وكل شيء فيها ضروري لإعلانها. لكن ما يُكشف ويتجسد ليس كل الحقيقة الروحانية. فالرمز يبقى جزئياً مبتوراً دوماً "لأننا نعلم بعض العلم ونتنبأ بعض التنبؤ" (١كو١٣:٩). والرمز يجمع حقائق لا تقاس، إذ تبقى كل واحدة منها بالنسبة للأخرى "حقيقة أخرى كلية". مهما كان الرمز حقيقياً، ومهما أُتْحِدَ والحقيقة الروحانية، فوظيفته ليست إرواء عطشنا، بل زيادته "أَعْطِنا أن نتحد بك حقيقة في اليوم الذي لا يعروه مساء ..." (الأنافورا).

الهدف من الرمز أن يقدم لنا رؤية ومعرفة تكونان بمثابة عطش وشوق إلى المسيرة الروحية الكاملة.

وإذا كان القداس الإلهي ذو طابع رمزي، فلأن القداس الإلهي تكوّن واتخذ هيكليته في بادئ الأمر بصفته رمزاً للملكوت والكنيسة في صعودها إلى السماء، مكملة نفسها في هذا الصعود كجسد للمسيح وكهيكل للروح القدس. كل جديد القداس الإلهي وطابعه الفريد يكمنان بالضبط في طبيعته الأخروية "التي تنتظر المجيء الثاني" والتي تكشف ما سيحصل، فهو إتحاد الملكوت بـ "الدهر الآتي". غير أن رمز الملكوت بامتياز والرمز الذي كمّل كل الرموز، ورمز يوم الرب والفصح والمعمودية وكل الحياة المسيحية "المستمرة مع المسيح في الله" (كول٢:٣)، هو سر الشكر (الإفخارستيا): السر الذي من أجله أتى المسيح القائم من بين الأموات، وسر لقائه والشركة معه "إلى مائدته وفي ملكوته". السر الذي نتناول منه جسد المسيح ودمه الحقيقيين الإلهيين.

لقد حُجِّم "الرمز" من مفهوم يشرح حقيقة ما يحدث، إلى مفهوم يرمز مجازاً إلى ما يحدث، ويعود السبب الرئيسي في ذلك إلى الانحطاط الذي نال المفهوم الأصيل للرمز في الوجدان المسيحي. منذ نشؤ الكنيسة، والإيمان المسيحي يعترف جهاراً ويتمسك بحقيقة استحالة الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه الحقيقيين الإلهيين. وعليه، فإن أي "خلطة" بين هذه الحقيقة وأي لون من ألوان "الطابع الرمزي" كانت تعتبر تهديداً لـ "الحدث الحقيقي والفعلي" في سر الشكر (الإفخارستيا)، أي تهديداً للحضرة الحقيقية للجسد والدم الإلهيين على المائدة. ومن هنا أيضاً، وأخيراً، محاولات تفسير "حقيقة هذه الاستحالة" باللجوء إلى مقولات أرسطو حول "الجوهر" و"العَرَض"، وتحديدها على أنها "استحالة في الجوهر". فهل أن جوهر جسد المسيح يحل محل جوهر الخبز، في حين عَرَض هذا الأخير يحل محل عَرَض جسد المسيح؟. إن هكذا شرحٌ لا يفيد بشيء للمؤمن الذي يعترف كل قداس إلهي بأن "هذا هو جسدك نفسه ... وهذا هو دمك الكريم عينه". أما بالنسبة للعقل، فهو ليس سوى محاولة تفسير غير

مفهومة فُرضت على القوانين تدَّعي (أي محاولة) أنها تستند إليها. وأدى ذلك في نهاية المطاف إلى قطع كل صلة فعلية بين القداس الإلهي نفسه، سواء كان ذلك بتعدد أجزائه أم في وحدته ككل، وبين تحول مواد الخبز والخمر، وتالياً إلى استبعاده عملياً من محاولات تفسير الأسرار ... "[١].

(١) نقلاً بتصرف عن: الأب الكسندر شميمن، الإفخارستيا سر الملكوت، منشورات النور.

الأب الكسندر شميمن هو أحد لاهوتيو كنيستنا الأرثوذكسية المعاصرون (+١٩٨٣). إنه ينتمي إلى هؤلاء القديسين اللاهوتيين الذين عملوا ويعملون على أن يكونوا ضمير الكنيسة في العالم أمام الإشكاليات المعاصرة لهم بروح الإنجيل، وعلى إيضاح وشرح عقيدة وإيمان الكنيسة الأرثوذكسية بلغة وعرض يتماشيان ومفاهيم عصرهم بدون الحياد عن الأسرار المسيحية الأساسية، سر الثالوث الأقدس وسر التجسد وسر الفداء. هؤلاء القديسون اللاهوتيون الذين ولدوا من رحم كنيستنا الأرثوذكسية، التي أنجبتهم ومازالت تنجبهم، أمس واليوم والغد، بالروح القدس العامل فيها. إنها كنيسة حية بقديسيها اللاهوتيين المتوشحين بالله، يعرضون ويوضحون بإسهاب ما ورد من شذرات وإشارات، تتعلق بالإيمان الأرثوذكسي، عند الآباء القديسون السابقون الذين لم يتعرضوا لها بالتفصيل لعدم حاجتهم لذلك، لمواجهة هرطقات وبدع لم تكن في زمانهم. وجميعهم لم يستخدموا في كتاباتهم اللاهوتية والعقائدية والدفاعية، لشرح وعرض عقيده إيمان الكنيسة لغة غريبة عن اللغة التي كُتب بها الكتاب المقدس، ولم يتحاججوا بترجمات بلغات أخرى له. كما أنهم لم يغايروا في عرض إيمانهم خوفاً إساءة فهم ما يقولون، أو من أن يُتهمون بالشِرك بالله ممن هم خارج الإيمان المسيحي. فهي كنيسة لم تُصب بالعقم، عائشة جامدة على تراث قديم لآباء قديسين حافظوا في عصرهم على الإيمان الأرثوذكسي القويم بمواجهتهم الهرطقات والبدع الغير الأرثوذكسية، أمثال القديسين الإسكندريين الهلينيين أثناسيوس (+٣٧٣) وكيرلس (+٤٤٤)، اللذان تحتفل كنيستنا الأرثوذكسية بذكراهما معاً في يوم ١٨ يناير (كانون ثاني).

أولاً

سـر الشكر (الإفخارستيا) في الكنيسة الأرثوذكسية

كان من الأهمية تعريف التعبيرين "السر" و "الرمز" كنسياً، قبل التكلم عن سر الشكر (الإفخارستيا)، تناول جسد ودم يسوع المسيح الحقيقيين الإلهيين والمؤلِّهين، **كما تؤمن كنيستنا الأرثوذكسية**. استناداً إلى الإنجيل المقدس، ونص القداس الإلهي، وكما تكلم عنه الآباء القديسون المتوشحون بالله. **ذلك ألا ينساق أبناء كنيستنا الأحباء، في مصر، إلى تعاليم وتفاسير غريبة عن عقيدة وإيمان وتقليد كنيستهم الأرثوذكسية ظناً منهم أنها الإيمان القويم**. باطلاعهم على التعاليم التي ذكرت عن سر الإفخارستيا في كتاب "بدع حديثة، New Heresies"، لبطريرك الكنيسة القبطية الأرثوذكسية البابا شنودة الثالث، بقوله: « "طبعاً اللاهوت لا يُؤكل ولا يُشرب". "ولكن السرائر الإلهية في سر الإفخارستيا، لا تعطي لنا الاشتراك في اللاهوت، حشا. إنما تُعطي خلاصاً، وغفراناً للخطايا وحياة أبدية". "إن السيد المسيح قال "كل من يأكل جسدي ويشرب دمي" (يو٦:٥٦). ولم يقل من يأكل ويشرب لاهوتي ... إن الله روح (يو٤:٢٤) والروح لا يؤكل ولا يشرب". "كذلك فالذي يأكل، اللاهوت، الطبيعة الإلهية!! ويثبت فيه يخرج من التناول إلهاً يسجد له الذين في الكنيسة". "على أنه تقابلنا هنا مشكلة وهي: ماذا عن الذين يتناولون بدون استحقاق؟ في نفس الوقت (١كو ١١:٢٩)". "أما قول الرب "يثبت فيّ وأنا فيه" فليس معناه

الثبات في لاهوته! فالذين تناولوا لأول مرة في العشاء الرباني لم يثبتوا. فمنهم من خاف وهرب ومنهم من أنكره ثلاث مرات، وكلهم اختفوا في العلية هرباً من اليهود"، "هل تم سفك دم المسيح يوم الخميس، بدون الآم،وبدون صلب، وبدون شـــوك؟!. وهـــل سفك دمه مرتين يوم الخميس ويوم الجمعة؟!" ». من الملاحظ أن قداسته، في كتابـــه هذا، يقدم تساؤلات وتعليقات أكثر منها إجابات، تشكك أبناء كنيستنا، المطلعـــين عليها، في إيمان وتعليم كنيستهم. وكذلك باطلاعهم، على تعاليم بعـــض الكنـــائس البروتستانتية القائلة، بأن المُقدَّم للأكل والشرب في الكنيسة هما خبز ونبيذ وليس جسد ودم يسوع المسيح الإلهيين، لأن هذا مجرد ذكرى لما صنعه الرب في العشاء الأخير، لأن يسوع قال لتلاميذه "أصنعوا هذا لذكري". وأيضاً تعاليم كنائس بروتستانتية أخـــرى تقول، بأن الخبز والنبيذ المقدمان في الكنيسة يصبحان جسد ودم الرب يسوع فقط لمن يتناول منهما بإيمان على أنهما جسده ودمه الإلهيين، أما من لا يؤمن بذلك فهو يأكل ويشرب خبزاً ونبيذاً أرضيين.

في كنيستنا الأرثوذكسية سر الشكر (الإفخارستيا)، هو "سر الأسرار"، إنه حدث الفصح فيه يحقق الروح القدس لأجلنا فصح المسيح. **إنه مائدة الرب** التي يقدم فيها المسيح نفسه مأكلاً ومشرباً حقيقيين في ذبيحة غير دموية. **إنه اشتراك في جسد الرب ودمه. فباستدعاء الروح القدس يصبح سر الشكر تتمة للعشاء السري.** وفي الروح القدس وبالروح القدس يتم حضور الرب فيه، وفي الروح القـــدس وبـــالروح القدس نصبح مساهمين في جسد المسيح ودمه، وفي الروح القدس وبـــالروح القـــدس وحلوله غير المنظور يصبح الخبز والخمر جسد المسيح الطاهر نفسه ودمه الكريم عينه. إن جسد الرب ودمه الكريمان هما الغذاء للذي اعتمد على اسم الثالوث الأقدس وختم بالروح القدس.

ففي العشاء السري، العشاء الأخير، أسس الرب يسوع المسيح نفسه سر الشكر (الإفخارستيا)، وفيه لم يعطي **تلاميذه** خبزاً أرضياً ليأكلوا ونبيذاً أرضياً ليشربوا، بل **أكلوا وشربوا جسد ودم يسوع المسيح الحقيقيين الإلهيين المقدمين منه نفسه لهم.** وعدم الإيمان بهذا، **أولاً:** يجعل من الرب يسوع المسيح إنساناً محدوداً وليس إلهاً حر الإرادة. **ثانياً:** يضاد تأكيد الرب يسوع المسيح نفسه لتلاميذه في العشاء الأخير، بأن الخبز المقدم منه لهم ليأكلوا هو جسده الحقيقي الإلهي، وأن النبيذ المقدم، أيضاً، منه لهم ليشربوا هو دمه الحقيقي الإلهي.

في النص اليوناني الذي كُتب به الإنجيل المقدس، استُخدمت الكلمة اليونانية "SARX"والتي تعني: "لحم"، (للتوضيح، بالإنجليزية Flesh وليس Meat)، "جسم"، "جسد طبيعي"، "طبيعة بشرية". ذلك عندما تكلم بولس الرسول عن تجسد يسوع المسيح من العذراء مريم وأخذه منها جسماً إنسانياً، كتب قائلاً "وبالإجماع عظيم سر التقوى الله ظهر في الجسم (En SARKI)" (١تيموثاوس٣:١٦). لأن الرب، كما يقول " كان ينبغي أن يشبه إخوته في كل شيء ... حتى يكفر خطايا الشعب. لأنه في ما هو قد تألم مجرَّبا يقدر أن يعين المجرَّبين" (عب ٢:١٧و١٨). وكما كتب آباؤنا المتوشحون بالله، أن الرب يسوع في هذا الجسم الإنساني المشوه والمجروح بالخطية الجدية "حمل كل ضعفاتنا، لأن ما لم يتخذه الرب يسوع في جسمه لا يخلص". كما أن الرب يسوع المسيح نفسه في حديثه مع اليهود عن أن المن السماوي الذي أعطاه الله للإسرائيليين في البرية، الذي كان رمزاً لجسده، الخبز النازل من السماء، أستخدم هذه الكلمة (SARX)، بقوله لليهود: "أنا هو خبز الحياة. آباؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا. هذا هو الخبز النازل من السماء لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت. أنا الخبز الحي النازل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد. والخبز الذي أنا أعطي هو جسمي (SARX mou) الذي أبذله من أجل العالم.

فخاصم اليهود بعضهم بعضاً قائلين كيف هـذا يقـدر أن يعطينـا جسـمه (tin SARKA aftou) لنأكل. فقال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم إن لم تـأكلوا جسم (tin SARKA) **ابن الإنسان** وتشربوا دمه فليس لكم حياة فـيكم. مـن يأكل جسمي (mou tin SARKA) ويشرب دمي فله حيـاة أبديـة ... لأن جسمي (SARX mou) مأكل حق ودمي مشرب حق. مـن يأكـل جسـمي (mou tin SARKA) ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه" (يوحنا٦:٤٨-٥٦). في هذا الجسم الإنساني "SARX"، **كونه ابن الإنسان**، كما قال لليهـود في الآيـات السابقة (يوحنا٦:٤٨-٥٦)، رآه البشر عند مولده، وعندما عايشوه. وكـان الـرب يسوع المسيح ببشرته الإنسانية معرضاً لإغواء الخطيئة إلا أنه لم يرتكب خطيئـة، لأن إرادته، مشيئته، البشرية خضعت بحرية لإرادته، مشيئته، الإلهية في كل شيء. ذلك لأنه في شخص يسوع المسيح الواحد، منذ لحظة تجسده في أحشاء العذراء مريم، اتحـدت الطبيعة الإلهية (اللاهوت) بالطبيعة الإنسانية (الناسوت) بدون ذوبان أو اخـتلاط أو امتزاج أو انفصال أو تشوش. وهذه الطبيعة الإلهية المتحدة بالطبيعة الإنسانية في هـذا الجسم الإنساني لم تكن مرئية للعيون البشرية. لذا أستخدم الـرب يسـوع كلمـة "SARX"، جسم، ليفهموا ما يعنيه.

كما أنه ذكرت الكلمة اليونانية "SOMA"، التي تعني: "جسد"، "جسـد حي"، "جسد للمسيح". التي استخدمها يسوع المسيح في حدث العشـاء السـري، عندما أعطى تلاميذه الخبز والخمر ليأكلوا ويشربوا، إشارة منه إلى جسده الحي المتأله الخاص به، وليس للبشر، "وأخذ (يسوع) خبزاً وشكر وكسر وأعطـاهم (تلاميـذه) قائلاً هذا هو جسدي (to SOMA mou) الذي يبذل عـنكم. اصـنعوا هـذا لذكري. وكذلك الكأس أيضاً بعد العشاء قائلاً هذه الكأس هي العهد الجديد بـدمي الذي يسفك عنكم" (لوقا٢٢:١٩و٢٠)، "أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطـى

التلاميذ وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي (to SOMA mou). وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً اشربوا منها كلكم. لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا" (متى٢٦:٢٦-٢٨)، (مرقس١٤:٢٢-٢٤).

في الترجمة العربية للإنجيل المقدس لا يوجد هذان التعبيران اليونانيين "SARX" و"SOMA". بل تُستخدم كلمة واحدة لهما هي كلمة "جسد"، في كل من أولاً: حديث يسوع مع اليهود قبل الخميس العظيم، **عندما تكلم** عن جسمه. ثانياً: العشاء السري يوم الخميس العظيم، **عندما أعطى** تلاميذه جسده ليأكلوا. وهذان التعبيران لا يعنيان، كما سبق القول، أن ليسوع المسيح بَشرتين، ذلك لأن إحداهما تشير إلى بشرته في إنسانيته (SARX) والتي يتشارك بها مع جميع البشر، والأخرى تشير إلى بشرته المتألة الخاصة به (SOMA) والتي لا يتشارك البشر معه بها. كالقول "ابن الإنسان" الذي يشير إلى الاسم "يسوع"، أي إلى الرب في طبيعته الإنسانية التي يتشارك مع جميع البشر بها، والقول "ابن الله" الذي يشير إلى الاسم "المسيح"، أي إلى الرب في طبيعته الإلهية، الخاصة به وحده، التي لا يتشارك بها مع البشر.

فجسد (SOMA) الرب يسوع المسيح الذي أعطاه لتلاميذه ليأكلوا ليس لاهوتاً مجرداً، ولا طعاماً خيالياً أو غير هيولي، ولا طعاماً أرضياً. لأن يسوع لم يقل لتلاميذه "خذوا كلوا هذا هو اللاهوت (الله الروح)" ، ولا "خذوا كلوا هذا هو الخبز غير الهيولي أو غير المادي"، ولا "خذوا كلوا هذا الخبز الأرضي"، بل قال لهم "خذوا كلوا هذا هو جسدي (to SOMA mou)". فالذي أعطاه الرب يسوع لتلاميذه ليأكلوا هو جسده (SOMA aftou) الحقيقي المؤله والممجَد تحت شكل الخبز. وكذلك الذي أعطاه لهم ليشربوا هو دمه الحقيقي المؤله والممجَد، تحت شكل الخمر (عصير الكرمة)، بقوله لهم "اشربوا منها كلكم هذا هو دمي". وقد أدرك تلاميذه أن ما أعطاه لهم يسوع المسيح هو جسده، "SOMA"، الحي المتأله الذي رأوه بعين

الإيمان. والذي ما كان لليهود أن يفهموا ما يتكلم عنه الرب يسوع إن قيل لهم. فكما أن الذين عايشوا يسوع المسيح، الإله المتجسد، رؤوا ولمسوا جسده الذي كان يبدوا كأنه جسد إنساني مجرد، لكنهم لم يروا و لم يلمسوا لاهوته المتحد بناسوته، إلا أن المؤمنين به كانوا يرون بأعين الإيمان ابن الله متجلياً في هذا الجسد. مثل يوسف الرامي، أيضاً، الذي رأى بعين الإيمان في جسد يسوع المسيح المعلق على الصليب المائت، جسد حي "SOMA"، "سأل (يوسف) بيلاطس أن يأخذ جسد يسوع (to SOMA tou Iysou). فأذن بيلاطس فجاء وأخذ جسده (to SOMA aftou)" (يو ١٩:٣٨). ذلك لأنه بموت يسوع بجسده المؤله،"SOMA"، اللاهوت لم يفارق الناسوت بل ظل متحداً به وأقامه من بين الأموات في اليوم الثالث.

هكذا أيضاً في سر الشكر فإن ما نراه وما نلمسه هو الخبز والنبيذ فقط، أما ما نتناوله فهو جسد ودم يسوع المسيح الحقيقيين الإلهيين الممجدَين تحت شكل الخبز والنبيذ المعطيان من رب المجد لتلاميذ في العشاء السري واللذان لا يظهران على حقيقتهما العميقة إلا لعين الإيمان. ذلك أن الخميس العظيم، العشاء السري، هو استباق محقق منفصل وغير منقسم عن ذبيحة الصليب ومستمد منها إلى مجيئه الثاني، لأن في هذا اليوم دخل يسوع المسيح معنوياً في الآلام. ففي جبل الزيتون في ضيعة اسمها جثسماني "أخذ معه بطرس وابني زبدي (يعقوب ويوحنا) وابتدأ يحزن ويكتئب. فقال لهم **نفسي حزينة حتى الموت** ... ثم تقدم قليلا وخر على وجهه **وكان يصلي قائلاً يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس** ولكن ليس كما أريد أنا بل ما تريد أنت ... فمضى أيضاً ثانية وصلى قائلاً **يا أبتاه إن لم يكن أن تعبر عني هذه الكأس ألا أن أشربها فلتكن مشيئتك**" (متى ٢٦:٣٧-٤٢)، "وإذ كان في جهاداً كان يصلي بأشد لجاجة **وصار عرقه كقطرات دم** نازلة على الأرض" (لوقا ٢٢:٤٤).

وقد كتب بولس إلى شعب كنيسة كورنثوس، قائلاً: "لكنني إذ أوصي بهذا لست أمدحكم كونكم تجتمعون ليس للأفضل بل للأردأ. لأني **أولاً** حين تجتمعون في الكنيسة أسمع أن بينكم انشقاقات وأصدق بعض التصديق. لأنه لابد أن يكون بينكم بدع أيضاً ليكون المزكون ظاهرين بينكم. فحين تجتمعون معاً ليس هو لأكل عشاء الرب. لأن كل واحد يسبق فيأخذ عشاء نفسه في الأكل فالواحد يجوع والآخر يسكر. أفليس لكم بيوتاً لتأكلوا وتشربوا. أم تستهينون بكنيسة الله وتُخجلون الذين ليس لهم ماذا أقول لكم أأمدحكم. على هذا لست أمدحكم. لأنني تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضاً أن الرب يسوع في الليلة التي أُسلم فيها أخذ خبزاً وشكر فكسر وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي (mou tou SOMA) الذي يكسر لأجلكم. اصنعوا هذا لذكري. كذلك الكأس أيضاً بعد ما تعشوا قائلاً هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي. اصنعوا هذا كلما شربتم لذكري. فإنكم **كلما أكلتم هذا وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء. إذ أي من أكل هذا الخبز أو شرب كأس الرب بدون استحقاق يكون مجرماً في جسد ودم الرب** (tou SOMATOS kai tou aimatos tou KIRIOU). ولكن ليمتحن الإنسان نفسه وهكذا يأكل من الخبز ويشرب من الكأس. لأن الذي يأكل ويشرب بدون استحقاق يأكل **ويشرب دينونة لنفسه غير مميز جسد الرب** (SOMA tou KIRIOU)" (١كو ١١:١٧-٢٩). يبدوا من قول بولس الرسول "أولاً"، أنه إلى جانب تفضيل البعض منهم أنفسهم على الآخرين، "تُخجلون الذين ليس لهم". كان يوجد انشقاقات بسبب وجود بدع، بقوله " أسمع أن بينكم انشقاقات وأصدق بعض التصديق. لأنه لابد أن يكون بينكم بدع أيضاً". قد تكون حول حدث يوم الخميس العظيم، إن كان ما أعطاه يسوع المسيح تلاميذه ليأكلوا ويشربوا هما خبزاً وخمراً لأن ما صنعه هو ذكرى، لأنه يقول "فحين تجتمعون معاً ليس هو لأكل عشاء الرب. لأن كل واحد

يسبق فيأخذ عشاء نفسه في الأكل فالواحد يجوع والآخر يسكر. أفليس لكم بيوتاً لتأكلوا وتشربوا. أم تستهينون بكنيسة الله". أم هما جسده ودمه الإلهيين الحقيقيين الممجَدين والمؤلِّهين، لأن ذبيحة الصليب لم تكن تمت يوم الخميس العظيم. لهذا هو لا يمدحهم بقوله لهم "ماذا أقول لكم أ أمدحكم. على هذا لست أمدحكم". ذلك لأنه كما يقول "لأنني تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضاً أن الرب يسوع في الليلة التي أُسلم فيها أخذ خبزاً وشكر فكسر وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي ... إذ أي من أكل هذا الخبز أو شرب كأس الرب بدون استحقاق يكون مجرماً في جسد ودم الرب". أما عن علاقة وارتباط حدث يوم الخميس بحدث يوم الجمعة، فيقول لهم "فإنكم كلما أكلتم هذا وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء".

وقد سلم الرب يسوع هذه الذبيحة غير الدموية لتلاميذه، وهم بدورهم لخلفائهم من بعدهم، المُسامين لهذه الغاية من أساقفة وكهنة. كما يقول بولس الرسول لكهنة كورنثوس "لأنني تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضا أن الرب يسوع في الليلة التي أُسلم فيها" (١كو ١١:٢٣). كي لا تتوقف هذه الخدمة أبداً في الكنيسة، لأنها تحيا سرياً باشتراكها في جسد يسوع المسيح ودمه الإفخارستيين، وذلك بقول يسوع لتلاميذه "خذوا كلوا هذا هو جسدي الذي يُبذل (باليونانية didomenon) عنكم ... بدمي الذي يُسفك (باليونانية ek-khinnomenon) عنكم ..." (لوقا ٢٢:٢٠)، (متى ٢٦:٢٦-٢٨)، (مرقس ١٤:٢٢-٢٤)، (١كو ١١:٢٣-٢٥). الكلمتان "يُبذل" (أي المبذول) و"يُسفك" (أي المسفوك)، وردتا في اللغة اليونانية اسم مفعول في حالة المضارع، وهذا يعني أن "بذل" الرب يسوع لجسده و"سفك" الرب يسوع لدمه الحقيقيين الإلهيين، كان حاصلاً لحظة إعطائهما منه لتلاميذه تحت شكل الخبز والخمر. وأن هذا "البذل" وهذا "السفك" في حالة استمرار حاصل في كل وقت، في كل قداس إلهي، إلى المجيء

الثاني. لأنه وكما، سبق القول، أن العشاء السري الذي أعطى فيه يسوع المسيح لتلاميذه جسده ليأكلوا ودمه ليشربوا، هو استباق محقق منفصل وغير منقسم عن ذبيحة الصليب ومستمد منها إلى مجيئه الثاني. ذلك أن حدث العشاء السري كان في يوم الخميس وليس في يوم الجمعة، فهو منفصل عن حدث الصلب إلا أنه غير منقسم عنه. هذا كما يقول الأسقف في القداس الإلهي عند تقسيم الحَمَل "يُفصل ويُجزأ حَمَل الله الذي يُفصل ولا يتقسم" (قداس باسيليوس الكبير). فلحَمَل يُفصل إلى أجزاء إلا أن كل جزء فيه غير منقسم عن كونه حَمَل واحد كامل. هكذا أيضاً الخميس العظيم منفصل عن يوم الجمعة العظيمة، إلا أن العشاء السري غير منقسم عن ذبيحة الصليب. فالعشاء السري هو استباق محقق منفصل وغير منقسم عن ذبيحة الصليب ومستمد منه إلى مجيئه الثاني. فكل قداس إلهي هو امتداد لذبيحة الصليب إلى مجيئه الثاني.

فجسد ودم يسوع المسيح الإلهيين الحقيقيين المقدمين منه لتلاميذه، والمحققان في كل قداس إلهي، ليسا مجرد ذكرى. فوصية الرب يسوع لتلاميذه: "اصنعوا هذا لذكري"، جاءت في اليونانية (touto pieite eis tyn EMYN ANAMNYSIN) (لو٢٢:١٩)، وهي بمعنى "اصنعوا هذا إحياء لذكري"، وتعني "كلما دعت الحاجة لتستذكروني أصنعوا هذا". لأن "الذِكْرَى" هي ذكر الشيء بعد نسيانه، أما "التَّذْكِرة" فهو ما تُستَذْكَرُ به الحاجة (صحيح البخاري). وهذه العبارة، كما وردت في اليونانية، وردت أيضاً عند بولس الرسول "لأنني تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضاً أن الرب يسوع في الليلة التي أُسلم فيها ... أخذ خبزاً وشكر فكسر وقال ... اصنعوا هذا لذكري (touto pieite eis tyn EMYN ANAMNYSIN) ... **فإنكم كلما أكلتم هذا وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء**" (١كو ١١:٢٣-٢٦). فإن ما يُصنع في كل قداس إلهي،

كما صنع يسوع المسيح في الليلة التي أُسلم فيها، هو استذكار وإخبار واعتراف بآلام الرب وموته وقيامته وصعوده إلى السماوات، "**اصنعوا هذا لذكري**، لأنكم في كل مرة تأكلون هذا الخبز وتشربون هذه الكأس **تخبرون** بموتي، **وتعترفون** بقيامتي، **فإذ نحن متذكرون** أيها السيد (الآب) آلامه الخلاصية، وصلبه المحي، ودفنه ذا الثلاثة الأيام، وصعوده إلى السماوات، وجلوسه عن يمينك أيها الإله الآب، ومجيئه الثاني المجيد المرهوب" (قداس القديس باسيليوس الكبير).

وسر الشكر (الإفخارستيا) يقام في سياق الاجتماع الليتورجي – الإفخارستي (القداس الإلهي) هو التعبير الأوضح عن سر الكنيسة، جسد المسيح. فالكنيسة هي التي تقيم سر الشكر (الإفخارستيا). وسر الشكر هو الذي يشكل الكنيسة ويوحد أعضائها ويغذيهم بالحياة. فسر الشكر هو سر الجماعة ووحدتها وترابطها. وسر الشكر هو الذي يصنع الكنيسة والكنيسة بدورها تصنع سر الشكر، والكاهن يستحضر فقط ذبيحة المسيح ويجعلها أمامه. فالكاهن الأعظم الأوحد هو المسيح المذبوح والقائم في المجد على المذبح السماوي، "يا حمل الله وابنه الرافع خطيئة العالم، **أيها العجل البريء من العيب والغير القابل نير الخطيئة والمذبوح من أجلنا طوعاً، الذي يتجزأ ولا ينقسم، ويؤكل منه ولا ينفذ أبداً** ... جعلتنا شركاء في أسرارك السماوية المرهوبة المتعذر النطق بها وهي جسدك المقدس ودمك الكريم" (قداس القديس باسيليوس الكبير). وهو نفسه المعطي لنا جسده ودمه الحقيقيين الإلهيين، كما أعطاهما لتلاميذه، "وهلم لتقديسنا أيها الجالس في الأعالي مع الآب، والحاضر ههنا معنا غير المنظور، **وارتضي أن تناولنا بيدك العزيزة** جسدك الطاهر، ودمك الكريم، وبنا لكل شعبك" (قداس القديس باسيليوس الكبير).

والقداس الإلهي في الكلام الجوهري، كلام التأسيس، يوضح أن **سر الشكر** هو **عربون القيامة** ،إنه يجمع بين ذكرى آلام الرب الخلاصية وقيامته، فالذبيحة الإلهية

غير الدموية ليست منفصلة عن التجسد والفداء الإلهيين، أنها ليست مجرد ذكرى، بل أنها تُقدم تذكارات لما صنعه الرب من أجل خلاصنا وأوصانا بصنعه، "**ارتضى ابنك الوحيد** الكائن في حضنك أيها الإله الآب **أن يولد من امرأة** هي والدة الإله القديسة الدائمة البتولية مريم ... قدمنا إلى معرفتك أيها الآب الإله الخالق ... وطهرنا بالماء وإذ قدسنا بالروح القدس **بذل نفسه فدية للموت** ... وإذ انحدر بالصليب إلى الجحيم ... وإذ **قام في اليوم الثالث** ... وإذ **صعد إلى السماوات** وجلس عن يمين عظمتك في الأعالي وهو سيأتي أيضاً ... **وقد ترك لنا تذكارات آلامه الخلاصية، التذكارات التي نحن واضعوها الآن بحسب وصاياه،** لأنه **لما أزمع أن يخرج إلى موته الطوعي المجيد المحي، في الليلة التي أسلم فيها نفسه من أجل حياة العالم** فبعد أن أخذ خبزاً على يديه المقدستين الطاهرتين ورفعه إليك أيها الآب وشكر، وبارك، وقدس، وكسر، أعطى تلاميذه الرسل القديسين قائلاً، خذوا كلوا **هذا هو جسدي** (mou esti to SOMA) الذي يكسر من أجلكم لمغفرة الخطايا، وكذلك أخذ الكأس من نتائج الكرمة ومزج، وشكر، وبارك، وقدس، أعطى تلاميذه الرسل القديسين قائلاً، اشربوا منها كلكم هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يهراق عنكم وعن كثيرين لمغفرة الخطايا" (قداس القديس باسيليوس الكبير).

كما أن القداس الإلهي يوضح أن الذبيحة غير الدموية هي اعتراف، **إنها إمتداد وإستمرار للأعمال الخلاصية التي قام بها الرب يسوع المسيح من أجلنا.** إمتداد لصلبه وقبره وقيامته وصعوده واستباق لمجيئه الثاني، "**هذا اصنعوه لتذكاري، لأنكم كل مرة تأكلون هذا الخبز وتشربون هذه الكأس تخبرون بموتي وتعترفون بقيامتي. فإذ نحن متذكرون** أيها السيد (الآب) **آلامه** الخلاصية، **وصلبه** المحي، **ودفنه** ذا الثلاثة أيام، **وقيامته** من بين الأموات، **وجلوسه** عن يمينك أيها الإله الآب، **ومجيئه الثاني** المجيد المرهوب" (قداس القديس باسيليوس الكبير).

والأسقف، في صلاة التقدمة، يضرع إلى الآب كي يرسل الروح القدس على القرابين غير الدموية الموضوعة، الخبز والنبيذ، لتستحيل إلى، تصبح، جسد ودم المسيح الإلهيين، "وإذا وضعنا رسمي **جسد ودم مسيحيك المقدسين** (tou agion SOMATOS kai aimatos tou KHRISTOU)، **نطلب** إليك ونسأل منك يا قدوس القديسين **أن يحل بمسرة صلاحك روحك القدوس علينا، وعلى هذه القرابين** الموضوعة ويباركها ويقدسها **ويوضح أما هذا الخبز فجسد الرب** (SOMA tou KIRIOU) وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح الكريم نفسه، **وأما ما في هذه الكأس فدم ربنا** وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح الكريم نفسه، الذي أهرق من أجل حياة العالم" (قداس القديس باسيليوس الكبير). وعندئذ يصبح المسيح نفسه مقدَّماً لله الآب وفي جسده البشر والطبيعة. في هذا التضرع **يطلب الأسقف حلول الروح القدس** ليس فقط على القرابين الموضوعة بل على المؤمنين أيضاً الذين سوف يتناولونها، بما فيهم الأسقف والكاهن، "**علينا وعلى هذه القرابين الموضوعة**". ذلك لكي يكون انسجام بينهم وبين القرابين، فتؤول هذه لخلاصهم لا لهلاكهم، **فالقرابين الإلهية**، غير الدموية، لا يمكن أن تقدس الإنسان إن لم يكن منفتحاً لعملها فيه. لأنها **لا تتوقف عن كونها جسد ودم يسوع المسيح الإلهيين** أو أن تكون مجرد خبز ونبيذ أرضيين، على استحقاق أو عدم استحقاق الإنسان المتناول منهما. أنها عطية الله المجانية، **وهي لا ترتبط بأي "سببية" أرضية أو بشرية**. وهذا من ثوابت وجدان الكنيسة الأرثوذكسية.

فكما أن الرب يسوع المسيح لا يخضع لإرادة الإنسان، في أن يكون رب وإله حق إن قُبل من الإنسان على إنه رب وإله، وأن لا يكون رب وإله حق إن رفض منه. لأن الإنسان المخلوق لا يُسَيِّر الخالق، أي أن يجعل الله مسيراً لرغباته وميوله وأهواءه المتغيرة. فالخلاص المقدم من يسوع المسيح هو لجميع البشر، مَن يؤمن به رباً وإلهاً

سينال الخلاص، أما مَن لا يؤمن به رباً وإلهاً يُبطِّل الخلاص بالنسبة لنفسه ولا ينالـــه. هكذا أيضاً سر الشكر، فإن الخبز والخمر لا يتغيران عن كونهما جســـد ودم يســـوع المسيح الحقيقيين الإلهيين، تبعاً لاستحقاق من يتناول منهما أو عدم استحقاقه. فمـــن يتناول منهما باستحقاق ينال نعمة التقديس عبر القرابين الإلهية غير المتغيرة. أما مـــن يتناول منهما بدون استحقاق يُبطل بالنسبة لنفسه عمل نعمة التقـــديس، بـــل أنهـــا (القرابين الإلهية) تصبح دينونة له لإجرامه في التجرؤ على التناول منها. إن كان مـــن المسيحيين، الإكليروس والشعب المؤمن، الذين يتناولونها بدون استحقاق، أو من غـــير المعمدين، كما يقول بولس الرسول "إذ أي من أكل هذا الخبز أو شرب كأس الـــرب بدون استحقاق يكون مجرماً في جسد الرب ودمـــه (tou SOMATOS kai tou Aimatos tou KIRIOU) ... لأن الذي يأكل ويشـــــرب بـــدون اســـتحقاق يأكل ويشرب دينونة لنفســـه غير مميز جسد الـــرب (to SOMA tou KIRIOU)" (١كو ١١:٢٧-٢٩). فالقرابين الإلهية، المُؤلَهة، التي هي بحـــد ذاتها محيية ومغذية تتحول إلى نار محرقة لغير المستحقين لاقتبالها. فكمـــا أن الطعـــام المغذي يمكن أن يكون وبالاً على الأجسام التي لا قدرة لها على احتماله، هكذا أيضاً فالقرابين الإلهية لا تفيد إلا الذين انفتحوا لفعل الروح وتهيأوا به لاقتبال مفعولها الإلهي.

أما عن استحقاق وعدم استحقاق المؤمنين الذين يتناولون من **الذبيحة الإلهية المؤلَّه**، فهذا يقود إلى استحقاق الذين يتناولون القائمين على السر أيضاً ، الأســـقف والكاهن. بل تقود أيضاً إلى إشكالية أخرى أكبر، وهي استحقاق الأسقف والكـــاهن لإتمام السر، وحقيقة الأسرار التي تُجرى على أيديهما. إن تطور هذا الفكر "التقوي" الذي يُبرز "قداسة العارفين"، الإكليريكيين، ودناسة غير العارفين، الشعب المـــؤمنين. أدى إلى نشؤ "الإكليروسية" (التسلط الكهنوتي) البعيدة كل البعد عن الأرثوذكســـية، والتي تحط من مكانة الشعب المؤمن ليصيروا في حالة المجرمين. حتى أنـــه، وللأســـف،

ظهر نوع من الإكليروس يعتبر الدفاع الدائم عن كل ما هو مقدس ضد لمس الشعب المؤمن هو جوهر الكهنوت. لا بل أنهم يجدوا فيه، في هذا الدفاع، رضا خاصاً، إن لم يكن لذة. وبلغة ومفهوم واقعنا اليوم، فإن مثل هؤلاء نصبوا أنفسهم فقهاء فتاوى، ليس فقط فيما يختص بالأمور الإيمانية والكنسية للمؤمنين، بل أيضاً إلى ما يخص أمور حياتهم اليومية.

إن الكنيسة الأرثوذكسية لا تنكر "حقيقة" الأسرار التي تُجرى على يد أي إكليريكي (أسقفاً كان أم كاهناً) سواء كان صالحاً أم طالحاً. لكنها في الوقت عينه تَعلم حق العلم الدرجة الكبيرة التي تعتمد فيها الحياة الكنسية على استحقاق أو عدم استحقاق من أُوكِلوا وأُودِعوا "تدبير الأسرار الإلهية". إن كنا نؤمن حقاً بأنه "ليس أحد مستحق" أن يتمم هذه الخدمة، وبأنها عطية من النعمة الإلهية!، فعلينا أن نؤمن أيضاً أننا أدنى من أن نتقبل هذه العطية، بتواضع وانسحاق وشعور بعدم الاستحقاق. ففي القداس الإلهي يتلو المتقدم في الخدمة، الأسقف، من أجل نفسه ومن أجل المشتركين معه الصلاة التالية: "لأجل هذا أيها السيد الكلي قدسه نحسر **نحن** أيضاً **عبيدك الخطأة الغير المستحقين، الذين أُهلنا أن نخدم مذبحك المقدس لا بالنظر إلى برنا** (لأننا لم نصنع شيئاً صالحاً على الأرض) بل بمجرد مراحمك ورأفتك التي أفضتها علينا بسخاء، وندنوا من مذبحك المقدس" (قداس القديس باسيليوس الكبير). كما أنه في بداية خدمة القربان الإفخارستي في القداس الإلهي يتلو خادم السر من أجل نفسه الصلاة التالية "**ليس أحد من المرتبطين بالشهوات واللذات الجسدانية** مستحقاً أن يتقدم إليك أو يدنو منك أو يخدمك يا ملك المجد، لأن الخدمة لك عظيمة ومرهوبة ... **فانظر إليّ أنا عبدك الخاطئ والبطال**، وطهر نفسي وقلبي من الضمير الرديء، **واجعلني كفؤا بقوة روحك القدوس**، إذ أنا لابس نعمة الكهنوت أن أقف لدى مائدتك هذه المقدسة وأخدم جسدك (sou SOMA) المقدس الطاهر ودمك

الكريم" (قداس القديس باسيليوس الكبير). **إلا أن هذه الصلاة للأسقف من أجل نفسه لا تعني أنه وحده يقدم هذه القرابين**، كما أنها لا تعكس تضارباً بين جماعة المؤمنين من جهة، ورجال الإكليروس من جهة أخرى. بل على العكس، **هي مطابَقة لكهنوت الكنيسة بكهنوت المسيح، الكاهن الأوحد في العهد الجديد**، الذي قدس الكنيسة بقربانه هو والذي أعطاها أن تشاطره كهنوته وذبيحته، لهذا يقول المتقدم "**لأنك أنت المقرِّب والمقرَّب** والقابل والموزع، أيها المسيح إلهنا" (قداس القديس باسيليوس الكبير) ، **فالأسقف أو الكاهن باعترافه** أن كهنوته الذي حلت عليه النعمة هو كهنوت المسيح، وباستعداده لخدمة جسد المسيح "سرياً"، أي بإعلان مطابقة قرباننا لذبيحة المسيح لا يبرهن عن عدم انفصاله عن الجماعة فحسب بل على النقيض من ذلك، **يذهب إلى حد تأكيد وحدة حالهُ معها** (**الجماعة**)، كما هي الحال بالنسبة إلى وحدة حال الرأس والجسد. **لذا من الضروري أن يصلي الأسقف أو الكاهن من أجل نفسه بتلاوته مع الجماعة**، الكنيسة، صلاة الاشتراك (قبل التناول)، "**لقد وقفت تجاه أبواب هيكلك ومن الأفكار الرديئة لم أبتعد**، لكن أنت أيها المسيح الإله يا من زكيت العشار ورحمت الكنعانية، وفتحت أبواب الفردوس للص **افتح لي حنو محبتك للبشر**، واقبلني متقدماً إليك ولامساً إياك كمثل الزانية والنازفة الدم ... أما أنا الذي يرثى له فبتجاسري على أن أقبل جسدك بجملته **لا تحرقني**، بل اقبلني مثل هاتيك. وأنر حواس نفسي **محرقاً جراثيم خطيئتي**" (قداس القديس باسيليوس الكبير).

أما عن أن "الثبات في المسيح ليس معناه الثبات في لاهوته، لأن تلاميذ الرب يسوع الذين تناولوا العشاء الرباني لم يثبتوا. فمنهم من خاف وهرب ومنهم من أنكره ثلاث مرات. وكلهم اختفوا في العلية هرباً من اليهود". **فإن ما حصل لتلاميذ يسوع المسيح في العشاء الرباني الأخير يحصل معنا اليوم**، إكليروساً وشعباً. **ففي سر الشكر** (الإفخارستيا) **يتم بالحقيقة إتحاد الإنسان بالمسيح والثبات فيه، وفي نفس الوقت لا**

يلغي حرية الإنسان واختياره. فالإتحاد بالمسيح والثبات فيه هو الذي يمنح الإنسان الحياة الأبدية، **ويجعله شريك الطبيعة الإلهية مؤلِّهاً إياه بالنعمة إن كان منفتحاً لعمل القرابين الإلهية.** وصلاة قبل التناول (المطالبسي) تُوضح **أن الجسد والدم الإلهيين اللذين نتناولهما في سر الشكر يحولانا إليهما سرياً ويسريا حياة يسوع المسيح الإلهية فينا، ولا يتحولان إلينا،** كالطعام البائد، **فيؤلِّهان الروح ويغذيان العقل** "ارتعد أيها الإنسان عند نظرك **الدم المُؤلِّه** لأنه جمر تحرق غير المستحقين، إن **جسد الإله** (THEOU to SOMA) **يؤلهني** (THEOI me) **يؤله الروح** (THEOI to Pnevma) **ويغذي العقل** على منوال غريب ... لقد أشغفتني بشوقك أيها المسيح، **وحولتني** بعشقك الإلهي، فاحرق خطاياي بالنار غير الهيولى، **وأهلني أن أمتلئ من النعيم الذي فيك** ... لا تصر لي هذه القدسات لمحاكمة من تلقاء عدم استحقاقي ... **وأما أنا فخير لي الالتصاق بالله وأن أضع على الرب رجائي**". وفي صلاة بعد التناول (صلاة الشكر) **نطلب من الله الآب** أن يجعلنا مسكناً لروحه القدوس، **ونطلب من الرب يسوع المسيح** أن يكون جسده الطاهر ودمه الكريم للحياة الأبدية ولغفران الخطايا. **كما نشكر والدة الإله كلية القداسة** لأنها أهلتنا لأن نصير شركاء في جسد ودم ابنها الرب يسوع المسيح، "**اجعلني (أيها الآب) مسكناً لروحك فقط** فلا أكون مسكناً فيما بعد للخطيئة حتى **إذا صرت بيتاً لك بدخولي في الشركة** يهرب مني كل فاعل شر وكل هاجس وهوى ... **ليصر لي جسدك المقدس** (to SOMA sou to Agion) **أيها الرب يسوع المسيح إلهنا للحياة الأبدية ودمك الكريم لغفران الخطايا،** ولتكن لي مناولة قرابينك هذه للصحة والفرح والسرور ... **أيتها السيدة والدة الإله الكلية القداسة** ... **أشكركِ** لأنكِ أهلتني أنا غير المستحق لأن **أصير شريكاً في جسد** (SOMATOS) **ابنك الطاهر ودمه الكريم**".

ثانياً

سـر الشـكر (الإفخارسـتيا)
في التراث الآبائي الأرثوذكسي

القديس يوستينوس (+ ١٦٧):

"بعد أن يشكر إمام الصلاة الله (الآب) وتوافقه الجماعة كلها، يُناول هـؤلاء الذين نسميهم شمامسة الحاضرين القربان المقدس وخمراً وماء. ثم يحملونها إلى الـذين تغيبوا عن الصلاة ... نحن لا نستلم هذه الأمور وكأنها خبـز مشـترك أو شـراب مشترك، لكن كما أن كلمة الله (الآب) يسوع المسيح مخلصنا اتخذ جسداً ودماً مـن أجل خلاصنا، لذلك تعلمنا أن الطعام المقدس بكلمة صلاة آتية منه يتغذى به جسدنا ودمنا فيحولهما إلى جسد يسوع المُتجسد ودمه ...".

ترتليانوس (+ ٢٢٠):

"بعد أن أخذ (يسوع) خبزاً وأعطاه إلى تلاميذه جعله جسده قائلاً "هذا هو جسدي" أي رسم جسده، لو لم يكن هناك أولاً جسد حقيقي لما وجد هذا الرسـم، فالوهم أو الفراغ يعجزان عن تشكيل رسم، أما مرقيون فزعم أن يسـوع أدعـى أن الخبز كان جسده، لأنه ظن أن المسيح كان بلا جسد حقيقي، فنتج عن ذلك أنه كان يجب أن يعطينا خبزاً ...".

القديس أفرام السرياني (+ ٣٧٣):

"يا لها من ليلة لا مثيل لها، يا لها من ليلة مباركة تلك التي أُسلم فيها الرب ... فإنه إذ جلس إلى مائدة العشاء هو وتلاميذه أخذ غذاء جسدياً بين يديه وحوله إلى غذاء روحي".

القديس كيرلس الأورشليمي (+ ٣٨٧):

"من يبقى في الشك عندما يسمع الرب نفسه يقول، "هذا هو جسدي"، من يتردد إذ بسمعه يؤكد، "هذا هو دمي"؟. الخبز والخمر من نتاج الطبيعة ولكن بفعل الروح القدس يصبح الخبز جسد الرب والخمر دمه المسفوك لأجلنا" .

القديس أمبروسيوس أسقف ميلان (+ ٣٩٧):

"هذا الطعام الذي تأخذونه (أي الخبز ونتاج الكرمة) في المناولة، هذا الخبز الذي نزل من السماء يهب طبيعة الحياة الأبدية، وكل من يأكل من هذا لن يموت إنه جسد المسيح ... كيف نثبت أننا في الخبز والخمر الموزع علينا من الكأس المقدسة نأخذ جسد المسيح ودمه، أيُ برهانٍ يمكننا أن نستخدمه على تحول الخبز والخمر؟ ... نحن نلاحظ أن النعمة لها قوة أعظم من الطبيعة مع أن كلامنا حتى الآن فقط عن نعمة بركة النبي (موسى بصلاته توقف الدم ورجعت المياه إلى طبيعتها كما شق البحر وتصلب كالجدران والأردن رجع إلى الوراء إلى منبع جريانه. ألم تؤدِ النعمة إلى نتيجة ضد الطبيعة؟)، فإن كانت بركة إنسان لها مثل هذه القوة حتى تغير الطبيعة، فماذا نقول عن ذلك التكريس الإلهي الذي تعمل فيه كلمات الرب المخلص؟ لأن ذلك السر الذي تتقبلونه (أي سر الشكر) يصير هكذا بكلمة المسيح. أفلا تكون لكلمة المسيح القوة التي تغير طبيعة المواد؟ ... ولماذا تبحثون عن النظام الطبيعي في جسد المسيح

وأنتم ترون أن الرب يسوع نفسه ولد من عذراء وليس حسب الطبيعة؟ انه جسد المسيح بالحقيقة الذي صلب ودفن، وهذا هو بالحقيقة سر جسده. الرب يسوع نفسه يقرر: "هذا هو جسدي" (مت٢٦: ٢٦). وأنتم تقولون "آمين" أي هو بالحقيقة، فليعترف القلب في الداخل بما ينطق به الفم، ولتشعر النفس بما يقوله الصوت ... ماذا ترى؟ خبزاً وخمراً؟ عيناك قد أخبرتاك بذلك. ولكن إيمانك يؤكد لك أن هذا الخبز هو جسد المسيح وهذه الكأس هي دم المسيح ... تقول، كيف يكون هذا؟ كيف يصبح الخبز جسداً والخمر دماً؟ يا أخوة هذا بالضبط ما تدعوه الكنيسة "سراً" لأن شكل هذه الأشياء الظاهري لا يطابق حقيقتها الروحية. ماذا ترى؟ مادة طبيعية؟ ولكن الروح يميز فيها نعمة إلهية ... أنت تسمع "هذا هو جسدي" وتجيب "آمين"، بهذا تؤكدون إيمانكم بسر الإفخارستيا وتشتركون بذلك فيه، كن إذن بالفعل عضواً في جسد المسيح فيأتي الذي تقوله صادقاً ... اسمع أيضاً ما يقوله الرسول بخصوص هذا السر "أننا نحن الكثيرين خبز واحد جسد واحد لأننا جميعاً نشترك في الخبز الواحد" (١كو١٠: ١٧) ... إذا كنا نحن بفعل النعمة الإلهية نتحول إلى جسد واحد، أفلا يستطيع الآب الذي خلق السموات والأرض أن يحول غلال الحقل ونتاج الكرمة إلى جسد الابن ودمه بفعل خلق جديد؟ ... هل ترغب أن تعرف كيف يُقَدَّس القربان بالكلام السماوي؟ أقبل هذا الكلام. يقول الكاهن: "أصنع لنا هذا القربان الروحي المقبول، الذي هو رسم جسد ربنا يسوع المسيح ودمه، ففي عشية آلامه أخذ خبزاً في يديه المقدستين، ورفع طرفه إلى السماء، إليك أيها الآب القدوس القدير والإله السرمدي، وشكر وبارك وكسر، وبعد أن كسره أعطى رسله وتلاميذه قائلاً: "خذوا كلوا منه كلكم، هذا هو جسدي، الذي يكسر لأجل كثيرين". لاحظ ... أنه قبل التقديس كان خبزاً، لكن متى أُضيف كلام المسيح فإنه يصبح جسد المسيح، الأسرار المقدسة ... قبل كلام المسيح تكون كأس القربان ملأى بالخمر والماء، ومتى أُضيفت

كلمات المسيح يتحول الخمر فيها إلى دم يُخلِّص الناس، أنظر كيف يقدر كلام المسيح على أن يحول كل شيء. فالرب يسوع نفسه شهد لنا أننا نقبل جسده ودمه، فهل علينا أن نشك في إيمانه وشهادته؟".

القديس يوحنا الذهبي الفم (+ ٤٠٧):

"بما أن الكلمة أكد لنا قائلاً: "هذا هو جسدي"، لنقبل ذلك وننظر إليه بعين الإيمان لأن المسيح ... أعطانا الحقائق الروحية في شكل حي ... كم من مؤمن يقول اليوم "يا ليتني أرى الرب في الجسد، أرى وجهه وثيابه". ولكنك تراه هو بنفسه وتلمسه وتذوق حلاوته. تتمنى أن تراه ولكن ها هو أمامك في الكأس المقدسة يدعوك ليس فقط لتراه وتلمسه بل لتقبله في داخلك مخلصاً وسيداً".

القديس يوحنا الدمشقي (+ ٧٦٠):

"القضية ليست في أن جسد السيد الذي أختطف إلى السماء يعود فينزل إلينا، ولكن الخبز نفسه والخمر يتحولان إلى جسد الرب ودمه ... الخبز والخمر ليسا برموز لجسد المسيح ودمه، إنهما جسد الرب الممجد ... إذا كانت كلمة الله حية وفعالة ... إذا كان الكلمة قد شاء أن يصير إنساناً فوهب نفسه جسداً دون زرع بواسطة العذراء الدائمة البتولية مريم، أفلا يستطيع أن يحول الخبز إلى جسده والخمر إلى دمه؟ ... قال الرب: "هذا هو جسدي وهذا هو دمي. افعلوا هذا لذكري"، والخبز يتحول إلى جسده والخمر إلى دمه كلما جلسنا معاً إلى مائدته حتى مجيئه الثاني ... تساءلت العذراء "كيف يكون هذا وأنا لا أعرف رجلاً؟". فأجابها الملاك: "الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك". وأنت تتساءل كيف يتحول الخبز إلى جسد المسيح والخمر والماء إلى دم المسيح؟. وأنا أجيبك الروح القدس يحضر إذ تتمثل

الكنيسة المصلية إلى قول السيد مرددة مع العذراء "ليكن لي حسب قولك"، فيتحول الخبز والخمر إلى جسد الرب ودمه. الرب يحضر في ما نألفه ويظهر لنا فيه قوته. إذ نأكل الخبز ونشرب الخمر يحول هو بروحه القدوس مظهراً مألوفاً في حياتنا اليومية إلى قناة يسكب من خلالها نعمته علينا. فلا نسأل كيف فيما بعد، يكفيك أن تؤمن أن قول الرب صادق وأن كلمته حية وفعالة" .

القديس سمعان اللاهوتي الحديث (+ ١٠٣٣):

"كما دخلت في القديم إلى العلية والأبواب مغلقة. وكما اختفيت عن تلميذيك إذ اتكأت معهما وأخذت خبزاً وباركت وكسرت وناولتهما. الآن أيضاً تحول الخبز إلى جسدك الطاهر. وإذ أتناول أنا من هذا الخبز أمكث فيك وأنت فيّ".

القديس نقولا كباسيلاس (+ ١٣٧١):

"هناك طريقتان تعمل بهما النعمة في القرابين، أولاً: تقديس القرابين. ثانياً: نحن نتقدس من خلالها بالنعمة. إن عمل النعمة في القرابين، لا يمكن أن يفسده شر إنساني مادام تقديس القرابين ليس مرهوناً بالفضيلة الإنسانية، ولا يمكن لضعفات الناس أن تعرقلها بأي شكل من الأشكال. إلاَّ أن ثانيا، أي عمل النعمة فينا، فيستدعي تعاوننا، وبالنتيجة، فإن من شأن إهمالنا، أن يعيق النعمة. بكلام آخر، النعمة تقدسنا عبر القرابين، إذا كنا مستعدين للتقديس. لكن إذا كنا، من ناحية ثانية، غير مستعدين، فإننا لن نجنِ نفعاً، وأكثر من ذلك سنعاني خسارة وضرراً. وهذه النعمة، سواء تألفت من غفران الخطايا أو أنها جلبت معها كل بركة ممنوحة للمشتركين في الوليمة المقدسة، بقلب نقي، فالأسقف يصلي كيلا تفارق القرابين. لأن النعمة والبركة يمكنهما فعلاً أن يفارقا القرابين بسبب الشر الإنساني (المتناول منها أو القائم عليها)

... إن فصلنا أنفسنا عن الإتحاد بالجسد الكلي القداسة، فإننا عبثاً نشترك في الأسرار المقدسة، إذ لا يمكن أن تنبض الحياة في أطراف مائتة ... كل مشروع الفداء الذي أتمه المسيح مرسوم في الـ "الحَمَل" (الخبز المقدس) أثناء القداس الإلهي هناك نرى رمز المسيح الطفل، رمز المسيح المسوق إلى الموت، والمصلوب والمطعون بالحربة. ثم نرى الخبز محولاً إلى جسد الكلي القداسة الذي احتمل كل الآلام وقام من الموت وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب ... لأن الأسرار المقدسة هي جسد المسيح ودمه اللذان هما للكنيسة طعام حق وشراب حق. والكنيسة إذ تشترك فيهما، لا تحولهما إلى جسد إنساني كما نفعل بالطعام العادي، بل نتحول إليهما، لأن العنصر الإلهي الأسمى يفوق البشري الأدنى. فعندما يدخل الحديد النار يصبح ناراً، وهو لا يعطي النار خاصة الحديد. وعندما نرى حديداً أبيض حامياً، يبدوا ناراً لا معدناً، لأن كل خواص الحديد قد أتلفت بفعل النار. وهكذا إذا رأى أحد كنيسة المسيح متحدة به ومشتركة في جسده المقدس، فلن يرى سوى جسد الرب ... لهذا من المنطقي جداً أن نقول إن الأسرار المقدسة تمثل الكنيسة ... والآن قد تم القداس، وأوشك الاحتفال الإفخارستي أن ينتهي. القرابين قد تقدست وهي نفسها قد قدَّست الأسقف والكهنة الذين معه، ومن خلال الأسقف تتقدس كل الجماعة المؤمنة".

الأب ليف جيلليه (+ ١٩٨٠)[١]

« "إن الإفخارستيا قبل أن تكون حضوراً للمسيح فينا، هي ذبيحة المسيح من أجلنا. يجدر بنا أن نتذكر، في يوم الخميس العظيم، بصورة خاصة، الصلة التي أرادها السيد بين عشاء العلية والفصح اليهودي، وبين هذا العشاء والآلام. كل الإفخارستيا هي عشاء تقدمة وذبيحة. وفي كل مرة نتناول فيها جسد المسيح المذبوح ودمه

(١) زمن التريودي، منشورات النور

المهراق، فإننا نشترك بآلامه. نشارك ذبيحته ... لقد جُمع العشاء السري والآلم بصورة لا تنفصم عراها مع أنهما حدثان منفصلان. فبينما تمثل قداديسنا "العلامة الناجعة" لذبيحة المسيح الصائرة، فإن الإفخارستيا التي تمت في العلية هي "العلامة الناجعة" لذبيحة المسيح التي ستحصل، في الموقفين توجد صلة سببية متبادلة بين العلامة والشيء المدلول إليه: في يوم الخميس العظيم تسبق العلامة التي تدل إليه. أما بعد الجمعة العظيمة فتلحقه. كان العشاء السري عربون الآلام، ليس فقط لأنه كون إطاراً ملاّنه ذبيحة الصليب حقيقة تاريخية دامية. بل لأن الفصح في العلية كان يستدعي ذبح الحمل على الصليب ويجعله حتمياً. مساء الخميس، أصبح يسوع "ملتزماً" لأنه قدم ذاته كذبيحة، ودخل معنوياً في الآلام. يسلط التأمل بهذا الأمر نوراً ساطعاً على معنى مناولتنا الإفخارستيا. كلما نشترك بعشاء الرب "نلتزم" آلامه ... لكن ما هي الصلة بين الذبيحة الإفخارستيا وذبيح الصلب؟. علينا هنا أن نتقى مترلقين، الأول: أن نعتبر الإفخارستيا نوعا من الذبح الثاني، غير الحاصل على الجلجلة. والثاني: (ودون ذكر خطأ من يعتبر الإفخارستيا هي مجرد تذكار لذبيحة الصليب) أن نتجاهل كلياً وجود ذبح آني واعتبار الإفخارستيا هي مجرد تقدمة لذبيحة يوم الجمعة العظيمة. إن مفهوم العلامة الناجعة الأساسي في كل ما يختص بالأسرار يُقينا هذين المترلقين. الإفخارستيا تشير بفاعلية إلى ذبيحة الصليب. تصوره من جهة بواسطة بعض الأعمال الرمزية، ومن جهة أخرى تُحيه سريا وتُحضره بدون أن يعيش المسيح مجددا آلامه. إذ تسمح لنا علاقة السببية المتبادلة القائمة بين الإشارة (الإفخارستيا) وإلى الشيء المشار إليه (ذبيحة الصليب). إن الذبيحة الكاملة الصائرة مرة على الصليب لا تعاد كلما أقمنا قداديسنا. ولكن هذه القداديس تُحْضر هذه الذبيحة وتجعلها قابلة للشركة في مكان ما وزمن ما. قداديسنا هي بالتالي انعكاس لذبيحة الصليب الوحيدة في مجال الصيرورة البشرية. يستطيع الله، الذي لا يرتبط بأية مؤسسة، أن يهبنا نعمة الصليب، بشكل

مختلف عن الذبيحة التي تقدمها الكنيسة. يبقى أن ننظر كيف أن موت يسوع على الصليب هو ذبيحة بحد ذاتها ... العشاء في العلية يُشكل وكذلك خدمتنا الإفخارستيا ليس فقط سر آلام السيد لكن سر تمجده واستجابة الآب الظاهرة في القيامة والصعود أيضاً. إن إفخارستياتنا المُقامة على الأرض تجعلنا على صلة مع الإفخارستيا الأبدية السماوية ... في السماء يستمر يسوع المسيح بتقديم ذاته للآب كضحية مذبوحة، مقبولة وممجدة. إن وجود جسده المصلوب هو شفاعة دائمة من أجل العالم، يُظهر ملء القبول الإلهي لذبيحة الابن بتمجد الضحية. لذلك تكلم سفر الرؤيا عن الحمل المذبوح والممجد في آن في السماء. إن هذه "الذبيحة السماوية" استمرار وامتداد مجيد أزلي لذبيحة الصليب. الذي لم يكن "العشاء السري" سوى باكورة وتذوق مُسَبَق لها. تُدخلنا إفخارستياتنا الأرضية منذ الآن في الإفخارستيا السماوية، ولها معنى "أخروي". إذ أنها متجهة نحو "يوم الملكوت المسياني الذي لا يعروه مساء". "كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن أجيء" (١كو١١: ٢٦). **إن ذبيحة العلية وذبيحة الصليب، والذبيحة السماوية والذبيحة الإفخارستيا هي ذبيحة واحدة فريدة. لا يوجد سوى ليتورجيا واحدة»**.

مطران طنطا (إرموبوليوس)

نقولا

مارس ٢٠١٠